كُلٌّ لنفسه !...

للقصصي الكبير اسكندر رتوما « الأب »

بقلم الأديب عبد المنعم مراد

كان بقرية فولى[1] منذ سنوات فلاح فقير يدعى « جيوم مونا »

وكان هناك دب يسطو على بستانه كل ليلة فيسطو من شجر الكمثرى ما حملت من الثمار ألذها وأكثرها عصيراً رغم أن هذا الحيوان يستسيغ كل شيء ، فمن يشك إذن فى أن هذا الحيوان له من حاسة الذوق ما للانسان وإلا لما اختار هذا الصنف من الكمثرى التى أغرم بها ذلك الفلاح الذى ظن بادئ الأمر أن ذلك من فعل الأطفال الذين يسطون على بستانه مما جعله يحشو غدارته بحبات كبيرة من ملح الطعام وينتظر هؤلاء الفتية

وعند الساعة الحادية عشرة تقريباً سمع زئيراً يدوى فى الجبل فقال لنفسه « آه . إن دباً غير بعيد »

وبعد عشر دقائق دوى عواء آخر قوى وقريب حتى ظن جيوم أنه لن يستطيع الرجوع أدراجه فانبسط على الأرض وليس لديه أمل إلا أن تكون الكمثرى هى مقصد الدب لا هو !

وظهر الدب فجأة فى ركن الحديقة وتقدم نحو شجرة الكمثرى ماراً على بعد عشر خطوات من جيوم ثم قفز على الشجرة فأنّت من ثقله فروعها وأخذ يلتهم الثمار بشره حتى أنه لو زار هذه الشجرة مرتين أخريين لكانت الثالثة عبثاً !

ولما بَسِم الدب هبط من الشجرة ببطء كأنه يأسف لمفارقتها وعاد أدراجه ماراً بصاحبنا (الصياد) الذى لم تكن غدارته المحشوة ملحاً لتغنى عنه فتيلاً

استغرق كل هذا حوالى الساعة ولكنها كانت طويلة جداً على الصياد كأنها عام فى حين أنها مرت على الدب كأنها لحظة !

ومع هذا فقد كان الرجل شجاعاً إذ أنه همس والدب يعود أدراجه « حسن ، اذهب . ولكن هذا لن يمر هكذا بل سترى »

وفى اليوم التالى مر أحد الجيران فوجد جيوم منهمكاً فى قطع أسنان مذراة حديدية فقال له :

— ماذا تفعل ؟

— أتسلى

فأخذ الجار قطع الحديد وقلّبها فى يده وأخذ يفكر برهة ثم أردف :

— لو كنت صريحاً يا جيوم لاعترفت لى بأن هذه الشظايا إنما تعدها لاختراق جلد أقوى من المنز البرى

— ربما

فاستطرد فرنسوا (وهذا اسم ذلك الجار)

— أنت تعلم أننى نعم الفتى ، فلو شئت أن يكون الدب لنا سوياً ، فإن اثنين خير من واحد

(١) فولى : قرية بسويسرا

— المسألة تتوقف على الظروف

قال ذلك جيوم واستمر فى قطع القطعة الثالثة

— سأترك الجلد لك وحدك ولن نقتسم سوى الجائزة[1] واللحم

— إنى أفضل السكل

— ولكنك لن تستطيع أن تمنعنى من أن أقتفى أثر الدب فى الجبل ومن أن أكن له فى الطريق

— أنت حر

وانتهى جيوم من عمله وعمد إلى إعداد مقدار مضاعف من البارود

فقال فرنسوا :

— كأنك ذاهب إلى ساحة القتال

فلم يجب جيوم بل قال :

— ثلاث قطع من الحديد فيها ضمان أقوى من قطعة من الرصاص

ولكن ذلك يشوه الجلد

— إنما فيها الموت الزؤام

— ومتى تذهب للعمل ؟

— غداً تعلم

— مرة أخرى ... ألا توافق ؟

— كلا

— أنذرك بأنى سأقتفى أثره

— هذا لا يضيرنى

— لنا سوياً ؟ ... قل !

— كل لنفسه !

— إلى اللقاء يا جيوم

— أتمنى لك أسعد الظروف

فانصرف الجار وهو يرى جيوم يحشو غدارته بالبارود وقطع الحديد

وفى المساء وهو مار بالمنزل رأى جيوم جالساً على أحد المقاعد بالقرب من الباب وهو يدخن غليونه بهدوء . فذهب إليه ثانية وقال :

— لست آسفاً ولا مكترثاً . لقد وجدت آثار ذلك الحيوان فلم أعد فى حاجة إليك مطلقاً . ومع ذلك فقد جئت أعرض عليك أن يكون لنا سوياً

فقال جيوم بلهجة المصمم :

— كل لنفسه !

لم يستطع فرنسوا أن يعلم ماذا فعل جيوم بعد ذلك فى تلك الليلة . ولكن امرأة هذا رأته فى الساعة العاشرة والنصف يحمل غدارته وقد طوى تحت إبطه كيساً رمادياً ، ولكنها لم تجرؤ أن تسأله إلى أين يذهب لأنه كان من الرجال الذين لا يفضون إلى نسائهم بشىء .

وأما فرنسوا من جهته فقد عثر حقيقة على الأثر الذى انتهى به إلى حديقة جيوم ، ولما لم يكن له حق فى أن يكمن على إحدى أشجار الحديقة فقد أخذ مكانه فى غابة تقع بين منتصف سفح الجبل وحديقة جيوم .

ولما كانت الليلة قمرية فقد رأى فرنسوا جيوم وهو يخرج من بابه الخلفى ، ثم تقدم حتى إحدى الصخور الرمادية التى تدحرجت من الجبل وكانت تبعد عن شجرة الكمثرى عشرين خطوة ، ثم وقف

(١) الجائزة : فى بعض البلاد تعطى الحكومة جائزة لمن يقتل حيواناً ضاراً

وأدار طرفه ليرى ما إذا كان هناك من يراه ، ثم تناول الكيس ووقف بداخله بحيث لم يدع من جسمه خارجه إلا رأسه وذراعيه . وارتكز على الصخر فأصبح من غير المستطاع تمييزه عنه نظراً لاتحاد لون الصخر والكيس وثبات جيوم فى موضعه .

مر من الساعة ربعها فى انتظار الدب وأخيراً أعلن مجيئه زئير متتابع وبعد خمس دقائق رآه فرنسوا

لم يأخذ ذلك الحيوان طريقه العادى الذى سلكه بالأمس إما لدهائه وإما لأنه أحس بالصياد الآخر . وبدلاً من أن يأتى عن شمال جيوم ارتسم لنفسه طريقاً منحنياً وأتى من عن يمينه بحيث لا يمكن أن يصل إليه سلاح فرنسوا؛ ولكن على بعد خطوات من غدارة جيوم الذى ظل ساكناً حتى ليظن بأنه لم ير ذلك الحيوان وهو يمر قريباً منه كأنما يتحداه . ويظهر أن الدب لم يشعر بعدوه إذ أن الريح كانت متجهة منه إليه ولذا استمر فى طريقه نحو الشجرة

ولم يكد يرتكز على رجليه الخلفيتين وقد حوط بهما الأماميتين ودفع بصدره إلى الأمام استعداداً للقفز حتى دوي فى الوادى صوت هائل وسرى فى الفضاء بارق من نار أعقبه أنين جرح مميت

إنقلب الدب راجعاً ماراً على بعد خطوات من جيوم دون أن يراه فقد أدخل ذراعيه ورأسه فى الكيس فاستتر فى الصخر من جديد

كان هذا المنظر على مرأى من الجار الذى ركع على ركبتيه ويده اليسرى ، قابضاً باليمنى على غدارته وقد اصفر لونه وهو يكتم أنفاسه وتمنى فى ذلك الوقت لو كان نائماً فى سريره بعيداً عن هذا الموقف

كانت مفاجأة سيئة لفرنسوا حين رأى الدب الجريح بعد أن دار دورة طويلة قد أخذ سبيله عن يمينه حتى أسلم نفسه لبارئه ، وتحقق من غدارته ليتأكد أنها محشوة . كان الدب على بعد خمسين خطوة يئن من الألم ويقف ليدور برأسه فيمض على موضع الجرح ثم يتابع السير حتى صار على بعد ثلاثين خطوة

ولكنه وقف فجأة وتنسم الريح التى تأتى من جهة القرية وزأر زئيراً مرعباً ثم قفز داخل البستان

— خذ حذرك يا جيوم ! احترس ! !

تفوه بهما فرنسوا وهو يتبع الدب وقد نسى كل شىء إلا صديقه لأنه اعتقد تماماً أنه لن ينجو من الدب إذا لم يكن قد استطاع أن يحشو غدارته من جديد ولكنه لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى سمع صرخة ولكنها كانت صرخة آدمية ، صرخة رعب ، بل صرخة النزع الأخير . ثم تلتها صرخة استجمع فيها صاحبها كل ما بقى فيه من قوة ومن رجاء فى الله :

«أدركونى !» لم يعقب ذلك أى صوت ولا تأوه

لم ينكص فرنسوا على عقبيه بل تقدم حتى اقترب من مصدر الصوت فتبين له بوضوح ذلك الحيوان الهائل منكباً على جيوم يمزقه بمخالبه

كان فرنسوا على بعد أربع خطوات منهما ولكن الدب كان ثائراً على عدوه لدرجة أنه لم يكترث لغيره . لم يجرؤ فرنسوا أن يطلق غدارته خوف أن تقتل جيوم إن كان لم يزل حياً . فالتقط حجراً وقذف به الدب

فالتفت الدب نحو عدوه الجديد . لقد كانا متقاربين جداً حتى أن الدب انحنى إلى الوراء استعداداً للمهاجمة ؛ ولكن بحركة آلية ضغط فرنسوا على الزناد فخرج الطلق الناري وانقلب الدب على ظهره لأن الرصاصة قد اخترقت صدره وكسرت عموده الفقري

ترك فرنسوا يتخبط في دمائه وأسرع إلى جيوم فلم يجده بشراً ولا جثة بل وجده عظاماً ولحماً ممزقاً قد التهم الدب رأسه بأكمله تقريباً

رأى فرنسوا الأنوار تتحرك وراء النوافذ فعلم أن كثيراً من فلاحي القرية قد استيقظوا فأخذ ينادي ويستغيث ويحدد المكان الذي هو فيه .

فخف إليه بعض الفلاحين بأسلحتهم وما لبثت القرية أن تجمعت بتمامها في حديقة جيوم ، وكانت امرأته من بين الحاضرين .

وقد كان المنظر رهيباً مرعباً إذ أخذ كل الحاضرين يبكون كالأطفال .

اكتتب أهالي المنطقة بأكملها لأرملة جيوم بمبلغ سبعمائة فرنك ، وتنازل لها فرنسوا عن الجائزة وباع لحسابها جلد الدب ولحمه .

وأخيراً اقتنع الجميع بوجوب التعاون والتآزر !

عبده عبد المنعم سالم

سيدتي
لا تخشى على مجوهراتك

سيدي
لا تخش على مستنداتك

اودعوها

خزائن بنـــك مصر الحديدية

فهي في الحفظ والأمان

بنك مصر يؤجر لكم خزائنه الحديدية القوية ويرعاها بعين ساهرة